

في
التأويل الإسلامي

﴿ ٣٦ ﴾

السنة والبدعة

لشيخ الإسلام: محمد الخضر حسين

تقديم وتحقيق

د / محمد عمارة

السُّنَّةُ وَالْبِدْعَةُ

لشيخ الإسلام: محمد الخضر حسين

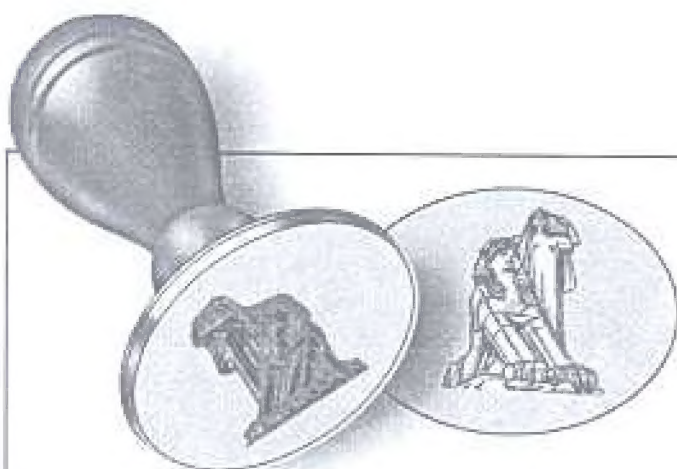
تقديم وتحقيق

د. محمد عسّارة



مكتبة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



السنة والبدعة لشيخ الإسلام: محمد الخضر حسين

تقديم وتحقيق د. محمد عمارة

يونيه ١٩٩٩

٥٩١٣ / ١٩٩٩ م.

I . S . B . N 977 - 14 - 0948 - 4

دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .

مدينة السادس من أكتوبر .

ت: ٣٣.٢٨٧ / ١١ - (١٠ خطوط)

فاكس: ٣٣.٢٩٦ / ١١

١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩.٩٨٢٧ - ٥٩.٨٨٩٥ / ٢

فاكس: ٥٩.٣٣٩٥ / ٢ . ص.ب: ٩٦ الفجالة .

٢١ ش أحمد غرابي - المهندسين - الجيزة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٢

فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ / ٢ . ص.ب: ٢٠ إمبابة .

اسم الكتاب

اسم المؤلف

تاريخ النشر

رقم الإيداع

الترقيم الدولي

الناشر

المركز الرئيسي

مركز التوزيع

إدارة النشر

تقديم

سبحان الله العظيم !

لقد أنعم الله ، سبحانه وتعالى ، على هذه الأمة عندما جعل وسطيتها إرادة إلهية وجَعَلًا ربانيًا ، وليست مجرد خيار إنسانى لما هو مباح من الأمور ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١).

وتميزت هذه الوسطية ، فى النسق الفكرى الإسلامى ، بأنها العدل المتوازن ، والتوازن العادل ، التى تبرا من غلوى الإفراط التفريط ، فهى تجمع من طرفى الغلو عناصر الحق ومكونات العدل ، لتكون هذه الوسطية الإسلامية الجامعة ، موقفا ثالثا ، هو اعتدال بين تطرفين ، وتوازن بين خالفتين ، وعدل بين ظلمين وحق بين باطلين ، وهو المعنى الذى أصاب لبه حديث رسول الله ، ﷺ ، الذى عرّف فيه هذه الوسطية عندما قال : «الوسط : العدل ، جعلناكم أمة وسطا» (٢) .

فالوسطية ، فى الفكر والسلوك ، هى منظور الرؤية الإسلامية لكل شئون الدين والدنيا . . والغلو - بطرفيه - هو سبيل المتنكبين سبيل المؤمنين بالإسلام ! . .

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد .

ولقد كان - ولا يزال - هذا الحال هو حال الناظرين والمتعاملين مع سنة رسول الله ، ﷺ . . . ضل منهم أولئك الذين غالوا في تعاملهم مع مآثورات السنة ومروياتها ، إفراطا أو تفريطا . . واهتدى الذين اتخذوا منها الموقف الوسطى ، المتسم بالتوازن والعدل والاعتدال . .

لقد تميزت النظرة الأصولية الوسطية للسنة النبوية بالتمييز ، في مرويات هذه السنة ومآثوراتها ، بين الأحاديث المتواترة وبين أحاديث الأحاد . . والتمييز في كتب السنة بين الصحاح التي وضع جامعوها شروطا للصحة رفعت من درجات الاطمئنان للمرويات ، وبين تلك الكتب التي جمع أصحابها كل المرويات ، تاركين التدقيق والفرز للعقل الناقد ، وفق قواعد علم الجرح والتعديل للرواة ولمتون ومضامين المرويات . .

والتمييز في مضامين المرويات بين «العقائد» - التي لا بد من أخذها عن النصوص قطعية الثبوت - وبين «الأمر العملية» التي تحولت إلى «واقع» مارسه الناس - والتي يمكن - لذلك - أخذها عن أحاديث الأحاد ، ظنية الثبوت . .

كذلك ، ميز هذا المنهاج الوسطى - في التعامل مع السنة النبوية - بين :

- السنة النبوية ، التي جاءت بيانا نبويا للبلاغ القرآنى ، والتي هي ، لذلك ، دين ثابت ، اكتسبت وضع الدين الإلهي من مجيئها بيانا للوضع الإلهي - أى الدين - . .

- وسنة العبادة ، التى جاءت تفصيلا لمجمل القرآن الكريم ، وتجييدا للمناسك والشعائر التى تمثل طاعة العباد للمعبود ، وآيات إسلام المسلمين الوجه لله .. والتى هى ، لذلك ، دين خالد ، ومطلق دينى ، لا زيادة فيها ولا نقصان منها ، ولا تغيير لها ولا تبديل ، مهما تغير الزمان أو اختلف المكان ، أو تبدلت العادات والأعراف ..

- والسنة التشريعية ، التى مثلت أحكاما جاءت بها الأحاديث النبوية فى المعاملات الدنيوية الثوابت ، المرتبطة بمنظومة القيم الثابتة ، وبالفطرة الإنسانية السوية ، التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ..

ميز المنهاج الإسلامى الوسطى بين أنواع السنة هذه - التى هى دين مطلق وخالد - لأنها البيان النبوى للبلاغ القرآنى - الذى هو جماع الدين .. وديوان الوضع الإلهى - وبين ألوان من السنة النبوية ، مثلتها أحاديث تعلق بـ :

- سنة العادة ، التى فعلها أو تركها رسول الله ﷺ لعادات وأعراف اجتماعية بيئية .. أو لجملة إنسانية .. أو لحب أو كره فى مقومات حياته كإنسان ..

- والسنة غير التشريعية ، التى مارسها رسول الله ﷺ فى نطاق الاجتهاد - غير المعصوم - فى المتغيرات الدنيوية ، المعللة بحكم ومقاصد تتغير بتغير الوسائل المحققة لهذه الحكم وهذه المقاصد .. والتى تتعلق أساسا بالسياسات والمعاملات فى التفاصيل والفروع - أى فى الفقهيات - ..

- والسنة التي مثلت خصوصيات لرسول الله ، ﷺ ، والتي نص القرآن الكريم ، أو نبيه الرسول ، في الأحاديث ، على أنها من خصوصياته التي لم يلزم بها أمة الإسلام ..

● كذلك ميز المنهاج الإسلامى الوسطى - فى التعامل مع السنة النبوية - فى فعل رسول الله ، ﷺ ، وتركه ، بين العبادات الثوابت .. وبين المعاملات المتغيرة .. فالأولى الاقتداء فيها والتأسى هو تعبد وعبادة .. والثانية لا ثبات فيها للوسائل ولا قداسة فيها للآليات ، وإنما الدين فيها هو تحقيق المقاصد التي تتغيا المصالح الشرعية المعتمدة للعباد ..

● وميز هذا المنهاج الوسطى كذلك ، فيما تركه رسول الله ، ﷺ ، بين ما تركه لأنه منهى عنه ديناً .. وبين ما تركه لعدم ظهور ما يقتضيه فى عصره .. فباب الفعل لهذا المتروك مفتوح عندما تطرأ - مع العصور المتلاحقة - مقتضيات الفعل لهذه المتروكات ..

تلك معالم ونماذج - مجرد معالم ونماذج - للمنهاج الوسطى فى التعامل مع السنة النبوية .. وهو المنهاج الذى ساد طوال عصور الاجتهاد الإسلامى ، والتي دونت فيها السنة ، وقامت فيها علومها ، قسمة بارزة فى علوم الحضارة الإسلامية .

وكذلك صنع المنهاج الإسلامى الوسطى فى التعامل مع «البدعة» ..

فالبدعة ، التى هى ضلالة ، والتى هى فى النار ، هى ما خالفت كتابا أو سنة صحيحة أو أثرا تلقته الأمة بالقبول ، أو إجماعا مثل ويمثل سلطة الأمة فى التشريع ..

أما المحدثات من الأمور ، والإبداعات التى يبدعها الناس عبر الزمان والمكان ، خارج نطاق ثوابت الدين وعقائده وعباداته وكلليات معاملاته ومنظومة قيمه ، فإن معيار القبول فيها أو الرفض لها هو موقع المقاصد التى تحققها من الحلال والحرام فى الدين ، وعلاقة هذه المقاصد بالمصالح الشرعية المعتبرة للعباد .. ولذلك ، فإن هذه البدع والإبداعات المحدثّة تأخذ الأحكام الشرعية الخمسة .. فقد تكون واجبة .. وقد تكون مندوبة .. وقد تكون مكروهة .. وقد تكون محرمة .. وقد تكون مباحة .. وذلك وفق موقعها من تحقيق المقاصد الشرعية والمشروعة ، وليس وفق حدوثها قديما أو عدم حدوثها .. بل لقد استقر هذا المنهاج الوسطى الإسلامى - فى التعامل مع البدعة - على أن الإفتاء الفردى بما يخالف رأى جمهور العلماء ليس من البدعة المذمومة دينيا .. ذلك أن الموازنة هنا ليست بين بدعة وسنة ، وإنما هى بين رأى مرجوح - هو الإفتاء الفردى الجديد - وبين رأى راجح - هو إفتاء جمهور العلماء - فكل اجتهاد فى الإفتاء - فرديا كان أو للجمهور - هو استنباط حكم «ظنى» ، أما البدعة الضلالة فهى الإحداث فى الثابت الدينى ، لأنها تُحلُّ «الظنى الإنسانى والنسبى البشرى» محل «المطلق الدينى» ، الذى هو من وضع العليم الخبير ..

لكن الفكر الإسلامى - فى عصر التراجع الحضارى .. وفى عصر التغريب - أى فى حقبة «التقليد الموروث» و«التقليد الحداثى» - قد ابتلى بالانحراف عن هذا المنهاج الوسطى فى التعامل مع السنة النبوية ..

فوجدنا من أهل «التقليد الموروث» من لا يميزون بين ألوان المأثورات والمرويات ، فيلزمون أنفسهم ويلزمون الأمة بما لا يلزم - وهذا هو غلو الإفراط - ووجدنا من أهل «التقليد الحداثى» من يهدرون كل المرويات ، بدعوى «التاريخية» أو «التاريخانية» ، التى تربط كل النصوص بالزمن الذى ظهرت فيه ، والملايسات التى صاحبت نشأتها الأولى ، وذلك دون تمييز فى هذه النصوص بين أقسامها التى تحدث عنها علماء الأصول ، حتى لقد جعلوها «علما» أفردوا له المؤلفات (١) ..

إنهم لم يميزوا بين السنة التى هى دين ثابت ، لتعلقها بالبلاغ القرآنى والثوابت الدينية - فى العقائد والعبادات والقيم وثوابت المعاملات وفلسفات التشريع ومبادئه وقواعده - وبين السنة التى هى فقه الواقع النبوى المتغير ، ومثلها سنن العادات والخصوصيات النبوية .. فمثلوا غلو التفريط ، كما مثل أهل «التقليد الموروث» غلو الإفراط ..

وإذا كان الله ، سبحانه وتعالى ، قد أراد لهذه الأمة أن تكون وسطاً .. عدلاً .. متوازناً .. وذلك حتى تحقق الشهود الحضارى على حضارات الغلو - غلو الإفراط والتفريط - ..

(١) من نفائس الكتب الأصولية فى هذا الفن كتاب القرافى ، شهاب الدين أحمد بن إدريس (الإحكام فى التمييز ما بين الفتاوى والأحكام ونصرفات القاضى والإمام) تحقيق : الشيخ عبدالفتاح أبو غدة . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م . وكتاب ولى الله الدهلوى (حجة الله البالغة) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

وإذا كانت حياتنا الفكرية الحديثة والمعاصرة ، تعاني من الاستقطاب الحاد بين الغلاة ، في الموقف من السنة النبوية الشريفة ، فإن الحاجة تتزايد إلى تقديم الفكر «الأصولي - الوسطي» ، الذي يقدم للباحثين والقراء معالم المنهاج الوسطي في التعامل مع سنة رسول الله ﷺ ، وذلك تعميقاً لمعالم هذا المنهاج الوسطي ، الذي هو وحده منظار الرؤية الإسلامية الخالصة .. وأيضاً لدعوة الغلاة - من أهل «التقليد الموروث» .. و«التقليد الحداثي» - إلى كلمة سواء ..

ولذلك .. ووفاء بهذا الواجب الفكري ، نقدم إلى الباحثين والقراء هذه الدراسة «الأصولية - المجددة» - عن (السنة والبدعة) - لواحد من أعلام الأصولية الإسلامية المجددة .. الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م) (١) ..

سائلين المولى ، سبحانه وتعالى ، أن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم .. وأن يجعلها في ميزان حسنات هذا الإمام العظيم .. إنه أعظم مسئول .. وأكرم مجيب .

دكتور

محمد عمارة

(١) انظر ترجمتنا للشيخ محمد الخضر حسين ، في كتابنا (معركة الإسلام وأصول الحكم) طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٩٨ م . وكتابنا (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) - سلسلة «في التنوير الإسلامي» - ص ٩ - ٢٣ طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٨ م .

شرع الله الدين الحنيف في سماحة وحكمة ، فلم يأت بها فيه حرج ، أو بما ينبو العقل السليم عن قبوله ، وكانت هذه السماحة والحكمة من أسباب انتشاره في المعمورة وظهوره على الأديان كلها في أعوام معدودة ، وحيث بلى بعض الشرائع من قبل فدخلها فساد التبديل والتأويل - اشتدت عناية الشارع بتحذير الناس من أن يحدثوا في الإسلام ما ليس منه . قال عليه السلام : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وقال «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» (١) .

ولم يخلص الدين مع هذه الزواجر من طوائف يلصقون به ما ينافي سماحته ، أو ما يشوه وجه حكمته . وقد كثرت هذه البدع حتى حجبت جانباً من محاسنه ، وكان لها أثر في تنكر بعض القلوب لهدايته ، وهذا ما حمل كثيراً من أهل العلم على أن يتناولوا البدع بالتأليف خاصة ، كما فعل أبو بكر الطرطوشي (٢) وأبو إسحاق الشاطبي (٣) وغيرهما من رجال الدين .

(١) صحيح الإمام البخاري .

(٢) أبو بكر الطرطوشي ، محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي ، الأندلسي (٤٥١ هـ - ٥٢٠ هـ ١٠٥٩ - ١١٢٦ م) من فقهاء المالكية بالأندلس ، ومن الحفاظ ، والأدباء . سكن الإسكندرية ، بعد رحلة إلى المشرق ، وتولى التدريس فيها إلى أن توفي بها .

(٣) الشاطبي ، إبراهيم بن موسى بن محمد النخعي (٧٩٠ هـ ١٣٨٨ م) من أبرز علماء الأصول ، ومن الحفاظ . وبعد كتابه (الموافقات) رائداً في فن مقاصد الشريعة الإسلامية .

وللبحث فى البدع مجال واسع ، ونحن نلّم فى هذا المقال بالقدر الكافى لإجابة رسائل اقترح أصحابها على المجلة^(١) بيان ما هو سنة وما هو بدعة ، وفى الفرق بين السنة والبدعة ، وتمييز البدعى من السنّى إصلاّح كبير .

(١) المجلة - التى يشير إليها المؤلف - هى الهداية الإسلامية - التى أصدرها الشيخ الخضر ، بالقاهرة ، فى عشرينيات القرن العشرين - لسان حال للجمعية التى أسسها ، بنفس الاسم - وكتابه (رسائل الإصلاّح) بأجزائه الثلاثة - عبارة عن المقالات التى نشرها فى هذه المجلة .

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..
فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ،
التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة ● المستشار طارق البشرى
- د . حسن الشافعى ● د . محمد سليم العوا
- أ . فهمى هويدى ● د . جمال الدين عطية
- د . سيد دسوقي ● د . كمال الدين إمام
- د . عبد الوهاب المسيرى ● د . شريف عبد العظيم
- د . عادل حسين ● د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر